البـــاب الثانى

فى شبه قد تمسك بها فريق المضللين ، وتبعهم فيها أكثر أهل العلم من المقلدين ، وزعموا أنها تجيز ما منعنا فى الباب الأول . ونحن نبينها هنا ونردها بما لا يدفع :

الشبهة الأولى

قالوا : قال الله تعالى (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) وحملوا القربى على أقارب النبى ﷺ ولا سيما أهل بيته ، وأن من مودتهم زيارتهم بعـــد موتهم للاستشفاع بهم . وفعل مايفعلونه عند قبورهم ، وتزيينها وكسوتها إلى غير ذلك مما لاتتم المودة إلا به .وقالوا : إذا لم يتوسل بهؤلاء إلى الله وهم أطهر الناس وأفضل الأمة نظرا لقرابتهم من النبى صلى الله عليه وسلم فبمن يكون التوسل؟ وزادوا أنهم لايمكنهم التوسل إلى الله تعالى إلا بتوسيط هؤلاء بينه وبين المتوسلين، لأن المتوسلين ملوثون بالذنوب والمعاصى فلا يمكنهم الطلب من الله بغير واسطة .

هذا محصل دعواهم ودليلهم ،ولاشك أن هذه الدعوى لا تتم لهم إلا إذا كان الخطاب المذكور فى الآية لعموم الأمة ، وكان معنى الآية أنه ﷺ أمر أن يبلغ الأمة أنه لا يسألها أجراً على تبليغ رسالته إلا أن يودوا قرابته أحياء وأمواتا

ونحن نقول : إن فى الآية أقوالا : أولها وهو أصحها: أن الخطاب لخصوص قريش ، وللكفار منهم على الأخص الذين كانوا يؤذون رسول الله ﷺ حتى حاصروه فى شعب أبى طالب ثلاث سنين ، ومنعوا عنه وعن أصحابه الزاد والماء وكل مساعدة ، وأن المراد بالقربى هى صلة القرابة التى بينه وبينهم ، وأن المعنى فى الآية أن الله أمره أن يبلغ كفار قومه أنه لايسألهم على تبليغ الدين أجراً لكنه يسألهم أن يراعوا ماينهم وبين النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من القرابة، وأن يودوهم بدل أن يعادوهم ويؤذوهم . وهذا القول هو الذى ارتضاه البخارى فى صحيحه وساق حديث ابن عباس يفسر به الآية على ما قدمناه . ويدل على هذا الذى يبناه أن أصحاب المشاهد التى يزورها الجاهلون اليوم لم يكونوا موجودين عند نزول الآية ولا بعدها بسنين ، وإنما ولد لعلىّ بعد الهجرة أولاده وبناته . ولا نزاع بين أهل

الحديث والتفسير أن سورة الشورى نزلت فى أوائل مانزل من السور قبل الهجرة بزمن طويل . وحمل القرابة على العموم يرده حديث ابن عباس المشار إليه ، فانه حمل الخطاب على الأقربين من الكفار الذين كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ولفظه « عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن النبى ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة فقال إلا أن تصلوا مابينى وبينكم من القرابة »

القول الثانى : إن الخطاب لعموم الأمة وأن الآية تدل على أنه يجب على كل انسان أن يصل قرابته ورحمه . والمعنى لاأسألكم على تبليغ الرسالة أجراً لكن أسألكم أن تصلوا أرحامكم وأن تودوا أقاربكم . وهذا القول أقوى الأقوال فى الآية لولا حديث ابن عباس ويؤيده قوله تعالى فى الآية بعدها (ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور) أى وأى نفس تقترف حسنة يضاعف لها أجرها والاقتراف الكسب وهو يدل على العموم لاعلى خصوص قرابته صلى الله عليه وسلم

القول الثالث : أن هذه الآية كانت فى أول الاسلام ثم نسخت بقوله تعالى فى سورة ص (قل ما أسألكم عليه

من أجر وما أنا من المتكلفين) أى لا أسألكم أجراً أصلا لامودة قرابتى ولا غيرها . والخطاب على هذا لعموم الأمة أيضاً ، وهذا هو اللائق بمقام المخلصين فى الدعوة إلى الله فضلا عن الرسل . فكيف وقد حكى الله عن جميع رسله أنهم لا يسألون العباد على رسالة ربهم أجراً ، وإنما يسألون الله تعالى كما حكى عن نوح (وياقوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجرى إلا على الله) وعن هود (وياقوم لاأسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون) وكما فى سورة يس (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ، قال ياقوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون) وإذا كان هذا ثابتا فيمن دونه منزلة من الرسل ، فكيف يجوز لمسلم أن يزعم أنه ﷺ يطلب أجراً على تبليغ الرسالة؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

القول الرابع : ماسلكه كثير من أهل التفسير، وهو أن المراد به علىّ وفاطمة وأولادهما ، وهذا القول مع مخالفته لنزول الآية وحديث ابن عباس فى تفسيره لها لا يستند الى شىء صحيح من السنة .

هذا خلاصة ماذكره الحافظ فى الفتح فى تفسير الآية

المذكورة . ومن هذا يتبين أنه لامتمسك فى الآية لأحد من الجاهلين الذين يدعون أن قبور أهل البيت ممتازة على غيرها من القبور . وسيأتى الكلام على أحكام القبور مفصلا فى الباب الثالث إن شاء الله تعالى .

الشبهة الثانية

ماأخرجه الحاكم وابن حبان وصاحب الدر المنثور فى تفسير قوله تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات) الآية . عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر عن النبى ﷺ قال « لماأذنب آدم الذنب الذى أذنبه بالأكل من الشجرة نظر فرأى مكتوبا على باب الجنة لا إله إلاالله محمد رسول الله . فقال اللهم إنى أتوسل اليك بمحمد وآل محمد إلا ما غفرت لى خطيئتى فقال الله عز وجل يا آدم من أين علمت بمحمد حتى تسألنى به ؟ فقال نظرت فرأيت مكتوبا على باب الجنة فعلمت أنك لم تقرن اسمك إلا بأحب الأسماء إليك . فقال قد غفرت لك »

وهذا الحديث مع خلو الكتب السبعة منه قد صححه الحاكم على عادته فى عدم المبالاة فى تصحيح الموضوعات .

قال الحافظ ابن حجر فى تهذيب التهذيب فى الكلام على عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : سأل رجل مالكا بحضرة الشافعى عن عبد الرحمن بن زيد وهو مدار طريق هذا الحديث يعنى لم يرو من غير طريقه ، فقال مالك : إذا أشكل عليكم إسناد حديث فائتوا به عبد الرحمن بن زيد فانه يحدثكم به عن أبيه عن جده عن نوح عليه الصلاة والسلام . وهذا أبلغ مايقال فى تكذيب الانسان . وقال مالك رحمه الله أيضاً : إنه يروى الأحاديث المناكير ، فقد روى أن سفينة نوح طافت بالبيت وصلت ركعتين . وكما كذبه مالك بأبلغ تكذيب كذبه الشافعى وأحمد بن حنبل وعامة أئمة الحديث حتى قال الحافظ عبد الحق فى الكلام على رواة الحديث : لا نعرف أحداً من أهل العلم يحتج بحديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم

وقال الحافظ الذهبى فى تعليقه على الحاكم صحيفة ٦١٥ جزء ثانى سطر سبعة إلى تسعة قوله صحيح قلت بل هو موضوع ، فيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يرويه عن مجهول

وقد أطال الحافظ فى تهذيب التهذيب فى توهين عبد الرحمن بن زيد توهينا شديدا بما نقله عن أئمة الحديث من الطعن عليه وهذا أخف مانقلناه عنه فمن أراد الزيادة فليراجعه

الشبهة الثالثة

وهى أقوى الشبه ما أخرجه الترمذى عن عثمان بن حنيف رضى الله عنه وحسنه « أنه جاء إلى النبى ﷺ وقد كف بصره فقال له ﷺ إن شئت احتسبت عند الله وإن شئت دعوت لك فرد الله بصرك فقال عثمان رضى الله عنه أحب أن يرد علىّ بصرى يارسول الله . فقال لهرسول الله ﷺ : قم فتوضأ وصل ركعتين ثم قل اللهم إنى أتوسل إليك بنبيك نبى الرحمة أن ترد علىّ بصرى . ثم قام رسول الله ﷺ فتوضأ وصلى ركعتين ثمدعا لهفرد الله عليه بصره» انتهى مارواه الترمذى . وأما الزيادة التى بعد ذلك المنسوبة إلى عثمان بن حنيف أنه علم رجلا آخر فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فان عثمان رضى الله عنه كان لا يسمع له شكواه ولا يقضى له حاجته ، فلما فعل ماعلمه عثمان بن حنيف قضى له عثمان بن عفان حاجته . هذه الزيادة كلها مكذوبة يكذبها من أساسها أن عثمان بن عفان رضى الله عنه لو فعل ذلك مع أحد من الناس لكان ظالماً . وقد خلت منها كتب السنة كلها .

وأما الجواب عما رواه الترمذى فمن وجوه :

الأول : أنه لا نزاع فى جواز التوسل به ﷺ حال حياته،فانه كان يدعو لمن سأله ، كما أن هذا جائز بغيره من الأولياء والصالحين حال حياتهم بإجماع المسلمين . بل سأل النبى ﷺ عمر أن يدعو له وهو ذاهب ليعتمر فقال له « لا تنسنا يا أخى من دعائك » وقد أمرنا الله عز وجل أن ندعو للنبى ﷺ فى صلواتنا وغيرها بقوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) كما أوصانا ﷺ أن نكثر من الصلاة عليه ، وهو دعاء له بالرحمة والسلامة. فقول القائل اللهم صل على محمد معناه اللهم ارحمه وارفع درجاته وسلمه .

الوجه الثانى : فى الجواب عن حديث الترمذى إجماع أصحاب النبى ﷺ والذين اتبعوهم بإحسان على ترك التوسل به بعد انتقاله إلى الدار الآخرة إجماعا عملياً قاطعاً . فلم ينقل عن أحد من أصحابه ولا من الذين اتبعوهم بإحسان أنه توسل به بعد موته ، أوذهب إلى قبره لذلك ، بل الثابت كما فى صحيح البخارى خلافه ، فقد روى فى الاستسقاء عن عمر رضى الله عنه « أنه خرج بالناس يستسقى حين حبس عنهم

المطر ، فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . ادع يا عباس فدعا فسقوا

فلو كان التوسل به أو بغيره بعد موته جائزاً ما تركه عمر ولا أصحابه فى أشد الأوقات حاجة إليه. فتركهم التوسل به ﷺ وعدولهم إلى الأحياء — وهم أحرص الناس على الاقتداء برسول الله ﷺ — من أقطع الدلائل على عدم جواز التوسل بالموتى .

الوجه الثالث : أن الحديث المذكور لم يسلم من طعن الحفاظ عليه ، ولهذا قال كثير من شراح الكتاب كالعراقى إن الترمذى لا يعول على تصحيحه فضلا عن تحسينه ، لأنه صحح الضعيف جداً كحديث « مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم »

وهذا عند أهل الحديث مسلم به، وهو مع ذلك معارض بالإجماع الذى قدمناه ، وبحديث البخارى فى الاستسقاء . هذا فوق أن الترمذى لم يرتق فيه عن درجة الحسن ، على أنه فى غير محل النزاع ، فان النزاع إنما هو فى الوسيلة بالموتى ، والحديث فى التوسل به ﷺ فى حياته كما

سلف ، وهذا مجمع عليه من الأمة ، بل ومجمع على أن الوسيلة جائزة بغيره من الأحياء أهل التقوى

الشبهة الرابعة

حديث الترمذى أيضاً عن ابن عباس عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم «أنه ضرب خيمة على قبر فسمع رجلا يقرأ فيه سورة الملك فلما أصبح حدث النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فقال هى المنجية هى المخلصة من عذاب الله » .

وإيراد هذا الحديث فى الاستدلال على الوسيلة بالموتى ممن أوردوه ضرب من الخلط ، فان التوسل بالقرآن وغيره من صفات الله مجمع على جوازه كما سيأتى بيانه فى آخر هذا الباب . ومع هذا فهذا الحديث مكذوب . قال الترمذى بعد روايته : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وأشار بهذا إلى ما طعن به عليه الحفاظ ، فان فى طريقه يحيى بن عمرو بن مالك النكرى البصرى . قال حماد بن زيد كذاب يختلق الموضوعات وينسبها إلى الثقات . ولولا هذا الرجل فى إسناد الحديث لكان من أصح الأحاديث فان بقية رجال

إسناده رجال الصحيح . وكما كذبه حماد كذبه يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وغيرهم . قاله الحافظ فى تهذيب التهذيب فى الكلام على يحيى بن عمرو المذكور .

الشبهة الخامسة

ما رواه ابن ماجه من أنه صلى الله عليه وسلم قال « اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا » الحديث .

وهذا الحديث مع كونه فى غاية الضعف فانه لو صح لم يفد المستدلين على جواز التوسل بالموتى شيئاً ، فان حق السائلين المذكور هو ما تفضل الله تعالى به على من دعاه بالإجابة لدعائه المشار إليه بقوله تعالى (وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانى) وقوله (أدعونى أستجب لكم) على أحد التفسيرين وهو تفسير الدعاء فى الآية بالطلب من الله ، وهو توسل بفضل الله ، وهو صفة من صفاته ولا نزاع فيه . فأين هذا من الوسيلة بالمخلوق والميت المتنازع فيه ؟ .

الشبهة السادسة

حديث « حياتى خير لكم ومماتى خير لكم ، تحدثون ويحدث لكم، تعرض علىَّ أعمالكم فما رأيت من خير حمدت الله وإن يك سوى ذلك استغفرت لكم » وهذا الحديث وإن اشتهر على ألسنة كبار الناس وصغارهم فقد خلت منه جميع كتب السنة حتى الحاكم الذى يروى ما هب ودب . ومع هذا فالذى رواه وقفه على بكر بن عبد الله المزنى ، وهو تابعى مشهور ، ومع ذلك لم يذكر فيه الصحابى أحد من رواة السنة ، لا فى صحيح الكتب ولا فى ضعيفها من طريق صحيح ولا حسن، وهو منقطع لايصلح للاحتجاج به ، لأنه وإن كان من هذا الطريق قوى الإسناد لكنه لا يصح رفعه من تلك الطريق، كما لا يصح رفعه من طرق أخرى ، وإنما يأخذه حضرات أهل الدين من دواوين الخطب . ذلك مبلغهم من العلم .

هذا مع أن البخارى ومسلماً قد خرجا حديثاً يرده ويبين أنه صلى الله عليه وسلم لا يعلم عن أمته شيئا بعد انتقاله إلى الدار الآخرة . وقد أورده البخارى فى مواضع من

صحيحه ووصلت طرقه عند أهل الحديث إلى خمسة عشر صحابيا ، وهو حديث متواتر فى قوة القرآن ولفظه من صحيح البخارى فى كتاب الرقاق «بينما أنا أسقى الناس على حوضى يؤتى بأناس من أمتى يريدون أن يشربوا فيحال بينى وبينهم ، ويؤخذ بهم إلى جهة النار ، فأقول أصحابى أصحابى فيقال إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك ارتدوا على أدبارهم بعد مافارقتهم فأقول كما قال العبد الصالح ـ يعنى عيسى عليه الصلاة والسلام ـ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد . إن تعذبهم فانهم عبادك ، وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم» وفى بعض الألفاظ تغيير من الرواة وزيادة ونقص

فقوله « إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك » يدل على أنه لايدرى عن أمته شيئا بعد موته ، لأنه إذا جهل حال أصحابه الذين عرفوه وعرفهم فغيرهم من باب أولى .

أما بقية ما أوردوه من الآثار والمنامات وتمسكوا به ، فنحن فى غنى عن الرد عليه ، فان هذا لا يبنى عليه شرع ، مع أن أسانيدها كلها أوهى من بيت العنكبوت كما يعرف ذلك من له إلمام بأسانيد السنة .

فصل فى مباحث مهمة

(توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية)

توحيد الالهية :

هو حصر التعظيم بجميع أنواعه فى ذات الله تعالى ، يتحقق ذلك بصرف العبادات سواء كانت قولية أو عملية أو قلبية إلى ذات الله تعالى وحده . وينبنى على هذا الأصل أن من حلف بغيره تعالى مثلا أو ذبح لغيره ، أو عظم بقلبه غير الله ، فقد ضيع توحيد الالهية لأنه صرف أنواعاً من العبادات الخاصة بالله تعالى إلى غيره . ومن ذلك نداء غير الله على جهة التعظيم ، والاستعانة والاستغاثة كما سيأتى فى مبحث الدعاء،أو طلب منفعة أو دفع ضرر ، فكل ذلك مخل بتوحيد الالهية ، وإن كان فاعل شيء من ذلك معتقداً أن الخالق لكل شيء هو الله ، فان ذلك الاعتقاد لا يفيده مادام يصرف شيئاً من العبادات لغير الله تعالى ، ولا يخرجا عن الشرك .

توحيد الربوبية :

هو حصر جميع الآثار والأفعال فى ذات الله تعالى ، وأنه هو صاحبها خلقا وإيجاداً ، كالخلق والرزق والإحياء والإماتة وشفاء المريض وتيسير الرزق أو إقتاره إلى غير ذلك من جميع شؤون الكون .

وليعلم هنا أن العرب كان عندهم هذا النوع من التوحيد ، كما حكى الله تعالى عنهم أنهم كانوا إذا سئلوا عن خالق السموات والأرض ، أو عن الرازق أو المحيي أو المميت ، أجابوا بأن صاحب ذلك كله هو الله ، كما تقدم بيان ذلك مفصلا فى الباب الأول . ولكن الذى جعلهم مشركين هو فقدهم للنوع الأول من التوحيد أعنى توحيد الالهية ، لأنهم كانوا يذبحون لغير الله تعالى ، وينادون ويستغيثون بغيره ويتقربون بما يستطيعون من الأموال . وهذه الأمور كلها عبادات مشروعة من خصائص الله تعالى . وقد قال تعالى (إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم) وقال يخاطب رسوله ﷺ والمراد غيره (ولا تدع من دون الله ما لاينفعك ولا يضرك ، فان فعلت فانك إذاً من الظالمين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا

هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) سورة يونس .

وهذا الأصل وهو معرفة النوعين من التوحيد ينفع المؤمن إذا تدبره، ويتبين منه أن الايمان قد يوجد مع الشرك، فقد يكون العبد معتقداً أنه لا خالق لكل شيء إلا الله تعالى ، فيكون من تلك الجهة مؤمنا إيمانا صحيحا ، ثم يتقرب إلى غيره بشيء من العبادات التى اختص بها تعالى كالدعاء والنذر والذبح والتماس النفع ودفع الضرر من ذلك الغير ، فيكون بهذا مشركا من حيث لا يشعر .

وقد كان هذا حال المشركين فى عصر التنزيل ، فكانوا يؤمنون بالله تعالى مع الاشراك به كما قال (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) وقد روى ابن أبى حاتم عن حذيفة رضى الله عنه أنه رأى رجلا يعلق فى عضده سيراً فقال له ما حملك على هذا ؟ فقال أستشفى به من الحمى، فقطعه حذيفة ثم قال : لا شفاك الله ؛ وتلا قوله تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) .

وأخرج ابن جرير وأصحاب السنن الأربعة أن رجلا من اليهود جاء إلى أصحاب النبى ﷺ فقال: إن ما تقولونه

حق لولا أنكم تقولون ماشاء الله وشاء محمد . فأنزل الله تعالى (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) فقال رسول الله ﷺ « لا تقولوا ماشاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا ماشاء الله ثم شاء محمد » .

وروى أصحاب السنن أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مروا بشجرة يوم حنين قد علق بها المشركون شيئاً من الخرق والمسامير ، فقالوا يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، أى اجعل لنا شجرة نتقرب بها إلى الله كالمشركين ـ والأنواط هى التعاليق ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتقولون كما قال قوم موسى إجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة » .

فاذا تدبر المسلم هذا عرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يمتنعون عما يشم منه رائحة التقرب إلى غير الله تعالى ، ولو كان منسوبا إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما فى حديث المشيئة السابق .

اقسام التوحيد

ومنه يعلم أن التوحيد ثلاثة أنواع : توحيد لسانى ،

ومنه دعاء الله وحده ، والحلف به ، وسؤاله ، فلا يجوز سؤال المخلوق شيئا لا يقدر عليه إلا الله ، وتوحيد عملى ، وهو ألا يعمل عملا خص الله به نفسه لغيره ، كالنذر والذبح والطواف والتمسح ، فان الله شرع هذه الأعمال وأمثالها له وحده ، فلا يجوز الطواف بغير البيت العتيق ، ولا أن نقبل إلا الحجر الأسود ، وبالجملة فكل عمل بدنى خص الله به نفسه أن يعبد به ، لا يجوز فعله لغيره .

وتوحيد قلبي ، وهو اعتقاد أن الله لا يشاركه غيره ، لا فى ذاته ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله ، فلا ذات تشبه ذاته ، ولا صفة لغيره تشبه صفة من صفاته ، ولا تأثير فى شىء من هذا الكون قلّ أو كثر إلا له وحده . وإنما جعل الله العباد مظاهر قدر لهذا التأثير ، فمن تمّ له جلب نفع أو دفع ضرر ، فانما ذلك بتقدير الله وتأثيره وخلقه ، لا دخل للعبد فيه ، وإنما هو مظهر قدر الله فيما حصل على يديه ، فيحمد أو يذم تبعا لما أجرى الله على يديه من الأفعال والنعم ، حتى كان من شكر الله على النعم أن يشكر من أجراها الله على يديه من الخلق .

فاذا عرفت أنواع التوحيد الثلاثة فلنبين لك هنا

مراتب الشرك بأقسامه الثلاثة : القولى والعملى والقلبى كما بينها القرآن

مبحث فى اقسام الشرك

كما انقسم الشرك تبعاً للتوحيد إلى قولى كدعاء غير الله وسؤال غيره ، وعملى ، كالذبح والنذر لغيره ، وقلبى ، كاعتقاد أن لغيره دخلا فى أفعاله ـ ينقسم إلى أربعة أقسام أخرى مرتبة كما رتبها القرآن بحسب الآتى :

الأول : اعتقاد أن غير الله من عباده الصالحين ممن يسألهم المخلوقون يملك على وجه الاستقلال شيئا من هذا الكون ، فيتصرف فيه

الثانى : أن يعتقد أن ذلك الغير يملك شيئا بالاشتراك مع الله .

الثالث : اعتقاد أن غير الله يملك بالمعونة شيئا مع الله ، فيتصرف كمعين لله

الرابع : اعتقاد أن من الصالحين من يستطيع أن يتقدم بالرجاء إلى الله لمساعدة مخلوق فى أمر من أمور الدنيا والآخرة كتخليصه من النار ، أو رفع درجاته فى الجنة

أو تخفيف أهوال الموقف عليه، أو غير ذلك من المنافع التى يتوهمها من يدعون غير الله ، سواء كان ما يتوهمونه من المنافع دنيويا، كدفع ضرر أو إكثار رزق أو قضاء حاجة، أو أخرويًا .

وهذه الأقسام الأربعة هى التى جرت سنة الله فى خلقه أن يتوصل الشيطان بها أوأحدها إلى اجتيال العبد وزحزحته عن التوحيد الذى فطر الله الناس عليه إلى الشرك

وإليك الآية التى تجمع الأقسام الأربعة للشرك من سورة سبأ . قوله عز وجل (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك ، وماله منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ، حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلى الكبير)

يقول تعالى للداعين غيره من مخلوقاته ، عقلاء كانوا أم غير عقلاء : نادوا أيها الداعون لغيرى الذين زعمتم من دون الله أنهم شركاء لله فى خلقه بأى صورة من صور الشرك ليجلبوا لكم نفعا ما ، أو يدفعوا عنكم ضرراً ما ، كشفاً أو تحويلا ، فانهم لا يستطيعون أن يجيبوكم إلى أى طلب

مما يحول بنفوسكم قلّ أو كثر ، لأنه لا يعطى أحد ماطلب منه إلا إذا كان مالكا لذلك المطلوب ، وفى الأمثال الحكمية « فاقد الشيء لا يعطيه » وهؤلاء الذين تدعونهم أعجز من أن يجيبوكم بتصرف ما لما تطلبون منهم ، فانهم لا يملكون مستقلين مع الله مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض

الثانى : وكما لا يملكون مثقال ذرة استقلالا ، لايملكونه بطريق الشركة مع الله — ومثقال الذرة مثل يعلم به سائب الملكية لما هو أكبر منه ، سواء كان اعتقادكم فيمن تدعونهم ناشئا عن عظم أجسامهم كالشمس والقمر أوعظم قدرهم لاصطفاء الله إياهم كرسله من الملائكة والناس أو غير ذلك من الأسباب التى دعتكم إلى قصد من قصدتم من المخلوقين بالحاجات

الثالث : وكما أنهم لا يملكون استقلالا ولا شركة ، فانهم عاجزون عن أن يعينوا فاطر السموات والأرض على شيء من شئون ملكه ، لاستغنائه تعالى عن كل ماسواه ، وافتقار كل ما عداه إليه ، ولهذا قال (وماله منهم)

أى من الذين زعمتم أنهم شركاء لله (من ظهير) أى معين فى صغير أو كبير من شئون الكون . ونفى تصرف غير الله فى الكون حتى بالمعونة يصد كل عقل سليم عن اعتقاد أن الله ملّك بعض عباده التصرف فى بعض الشئون ، فانه لو وقع منه تعالى ذلك التمليك لكان المأذون فيه خارجا عما يتصرف الله فيه من شئون الكون لاستحالة وقوع تصرف فى شىء واحد من اثنين يكون أثرهما فيه واحدا

الرابع : ثم أفرد أقوى أسباب ضلال الناس وشركهم منذ بدء الخليقة ، وهو اعتقادهم أن غير الله من عباده الصالحين يستطيع أن يتقدم بالرجاء إلى الله عز وجل لنفسه أو لمن يحبه من المخلوقين فيشفع عند الله تعالى فيمن طلب منه الشفاعة فقال (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فهذا السبب بالنسبة إلى الأسباب المتقدمة أضعفها ، ولكن لشيوعه بين المخلوقين حتى كان أساسا فى شرك من أشرك لأن أكثر شرك المخلوقين واتخاذهم الوسائط لله مبنى على هذا السبب ـ كرر الله نفيه وقطع طمع المخلوقين من أن يتعلقوا به يوم القيامة ، تارة بسلب نفعه كما فى الآية التى

معنا وآية طه (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا) وآيه البقرة (واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة) وآية النجم (وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى)

وتارة بنفى قبولها من الشفعاء كما فى آية البقرة الأخرى (واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون)

وتارة بسلب ملكية الشفعاء للشفاعة فلا يملكونها، أى فلا يملك مخلوق مهما كانت منزلته أن يتقدم إلى الله برجاء ما قبل أن يأذن له فيه . قال تعالى (أم اتخذوا من دون الله شفعاء ، قل أولو كانوا لايملكون شيئا ولا يعقلون ؟ قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون) وقال تعالى (رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لايملكون منه خطابا) شفاعة كانت أم غيرها ، كما قال بعد ذلك مؤكدا هذا المعنى (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا)

وقال فى نفى إمكان التكلم مع الله عن جميع العباد إلا بإذنه فى شفاعة أوغيرها (يوم يأت لاتكلم نفس إلا بإذنه) الى غير ذلك من الآيات التى تنفى عن المخلوقين أن يملكوا شيئا ما فى يوم القيامة . ومن أبين الآيات فيه قوله تعالى (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله)

مبحث فى الدعاء

أجمع المسلمون على أن من عبادة الله أن يدعى وحده وأن ذلك من توحيده تعالى . ولما انصرف العرب وغيرهم عن التوحيد الذى منه دعاء الله وحده إلى الشرك ، جرّهم ذلك إلى دعاء غير الله مع الله أو من دونه، فصارت أقسام الدعاء ثلاثة :

١ — دعاء الله وحده

٢ — دعاء الله مع غيره

٣ — دعاء غير الله

فكان من هدى القرآن أن يعالج هذا النوع من التوحيد بالوجوه الأربعة الآتية :

وجوه العلاج

١ — منع الناس من دعاء غير الله ، سواء أكان ذلك مع دعاء الله أو من دونه ، بتوجيههم إلى دعاء الله وحده ، فمن ذلك أمره لهم بدعائه فى قوله (فادعوا الله مخلصين له الدين) وقوله (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) وقوله (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانى ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) ومن ذلك نهيه تعالى عن دعاء غيره بمثل قوله (فلا تدعوا مع الله أحداً) وقوله (ولا تدعُ من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك ، فان فعلت فانك إذاً من الظالمين)

٢ — تذكير الناس بما فطرهم الله عليه من التوحيد . ومن الآيات فى ذلك قوله تعالى (قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون) وقوله تعالى (فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون)

وقوله (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار [١] كفور) وقوله (وإذا مسكم الضر فى البحر ضلّ من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ، وكان الإنسان كفوراً)

فأنت ترى من هذه الآيات فى هذا القسم أنه تعالى جعل دعاء غيره ضلالا وكفراً ، وأرشد إلى أن دعاءه وحده من الإخلاص فى الدين .

٣ — إثبات عجز المدعوين عن إجابة ما يطلبه منهم الداعون بدعائهم لهم ، ومن الآيات فى ذلك قوله تعالى (أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون ؟ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون؟) وقوله : (والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون) وقوله (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون . ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشوراً) وقوله : (يأيها

---

(١) ختار : خداع لنفسه بمعارضة الفطرة .

الناس ضرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب) وقوله : (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون) وقوله (له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال)

فأنت ترى من هذه الآيات أن الله قطع أطماع الداعين من إجابة المدعوين لهم ، وتيئيسهم من نصرهم وإعانتهم وإغاثتهم ، بعجزهم عن إجابة ما يطلبون منهم ، وأن هذا النوع من الدعاء لغير الله كفر وضلال .

٤ — التعادى بين الداعين والمدعوين يوم القيامة

من وجوه صرف الناس عن دعاء غير الله ، إثبات التعادى بين الداعى والمدعو يوم القيامة ، وبراءة المدعوين من الداعين بين يدى الله حين يسأل المدعوين أكنتم معبودين لهؤلاء الذين كانوا يدعونكم ؟ فيجيبونهم بالبراءة منهم وإظهار

العداوة لهم . ومن الآيات فى ذلك قوله تعالى (إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا : لو أن لنا كرة [١] فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) .

وقوله عز وجل (الأخلاء ـ أى فى الدنيا ـ يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين)

وقوله تعالى (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ؟ . قالوا : سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بوراً [٢] . فقد كذبوكم بما تقولون ، فما تستطيعون صرفا [٣] ولا نصراً [٤] ، ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً) إلى غير ذلك من الآيات .

---

(١) رجعه إلى دار الدنيا (٢) هلكى جمع هالك
(٣) تحويلا لعذاب الله عنكم
(٤) منى ولا من غيرى لكم

ونسوق هنا بعض الآيات التى تجمع بين عجز المدعوين فى الدنيا وتعاديهم للداعين فى الآخرة :

فمن ذلك قوله تعالى (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير[1] . إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير) (وقال : إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين).

مبحث فى الواسطة

ينقسم اتخاذ الوسائط إلى جائز وممتنع ، فالجائز منه ما يفعله أهل الدنيا بعضهم مع بعض للاستشفاع وقضاء

(١) اللفافة الرقيقة التى فوق النواة .

الحاجات . فهذا النوع من شفاعة المخلوق الحى عند مثله فى حى لتحصيل خير أو دفع ضرر مما لا يتنافى مع الدين ، قد أباحه الكتاب والسنة . قال تعالى (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها) بل عليه الأجر من الله لأنه تعاون على البر والتقوى وسعى للخير بين الناس وقد وقعت الشفاعة عند النبى ﷺ من الصحابة بعضهم لبعض وأمرهم بها فى قوله ﷺ « اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء » رواه البخارى وغيره .

وعكس هذه الشفاعة من أهل الدنيا سيئة ، كما قال تعالى (ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها)

وأما اتخاذ الوسائط لله تعالى ، فهو القسم الممتنع ، لأن منشأه قياس حال الحق تعالى على حال الخلق ، وقد نهى الله عنه بقوله (فلا تضربوا لله الأمثال) أى لا تقيسوا حالكم مع الله بحال بعضكم مع بعض ، لتباين الحالين تباينا تاما .

وفساد هذا القياس يتبين من الفروق الآتية بين حال العباد مع الله وحالهم مع بعض .

الفروق بين الوسائط لله والوسائط للمخلوق

الفرق الاول : ما بيّن الله بقوله فى النهى عن القياس المذكور (فلا تضربوا لله الأمثال ، إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) فبين أن الواسطة بين أهل الدنيا جائزة ، لأن المتوسط عنده جاهل بحال المتوسط له عنده ، فالواسطة تعرفه حال المتوسط له . والحق تعالى غير محتاج إلى من يعرفه حال عباده ، لأنه أحاط بكل شىء علماً . ولهذا ذم متخذى الوسائط له بقوله تعالى (قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض) وسمى اتخاذ هذا النوع شركا بقوله فى ختام هذه الآية (سبحانه وتعالى عما يشركون) .

الفرق الثانى : أن المخلوق قد يكون عالما بأن الحق لفلان ، ولكن يحمله ظلمه على منعه منه ، وهذا غير ممكن فى حقه تعالى ، لأنه حرم الظلم على نفسه ، ونهى عباده عنه (ولا يظلم ربك أحداً) (وما ربك بظلام للعبيد) إلى غير ذلك من الآيات . ولقوله فى الحديث القدسى « ياعبادى إنى قد حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » ، اه مسلم وغيره .

الفرق الثالث : أن المخلوق قد يكون عالما بالحق ، عادلا ، ولكنه لا يستطيع أن يوصله إلى صاحبه لقوة مؤثرة فوقه ، وهذا مستحيل فى حقه تعالى ، لأنه على كل شىء قدير ، فليس فوق قوته قوة تمنعه من وصول الحق لصاحبه (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم) (من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً) والعزيز فى جانب الله تعالى معناه أنه الذى يقهر كل شىء بقوته ولا يقهره غيره .

الفرق الرابع : أن المخلوق قد يكون ذا علم بالحق ، عادلا ، يستطيع أن يوصل الحق إلى صاحبه ، ولكن له غرض فى إيثار غيره عليه . والله تعالى منزه بمقتضى كونه حكيما عن الغـــرض ، بل أفعاله تعالى تابعة للحكمة والمصلحة .

فإذا تدبرت هذه الفروق الأربعة بين حال الخالق مع المخلوق ، وحال المخلوق مع مثله ، أيقنت أن اتخاذ الوسائط لله نقص يجب تنزيهه تعالى عنه . سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

ولما كان اتخاذ الشفعاء أحد مراتب الشرك ناسب أن نتكلم على الشفاعة التى تكون يوم القيامة بإذن الله والتى تمتنع ، متبعين فى ذلك طريق القرآن والسنة فى إثبات مائبت منها ونفى ما انتفى

مبحث فى الشفاعة

من العقائد التى تواترت بها الأخبار عن رسول الله ﷺ بعد آيات الكتاب وقوع الشفاعة يوم القيامة من الملائكة والنبيين والمؤمنين ، وهى رجاء يتقدم به الشفيع بعد إذن الله له لمساعدة مخلوق مذنب أو غير مذنب فى جلب نفع له أو دفع ضرر عنه . وفعلها شفع يشفع من باب نفع ينفع .

وقد أجمع سلف الأمة من الصحابة والتابعين على حصولها يوم القيامة ممن تقدم ذكرهم ، كما تقع من أرحم الراحمين لمن لا يقبل فيهم شفاعة الخلائق ممن مات على الايمان .

هل تغير الشفاعة شيئا مما فى علم الله ؟

وكما أجمعوا على ما ذكر أجمعوا على أنها لا تغير شيئا مما سبق فى علم الله للخلق ، ومن صورها أن العبد يحكم

عليه على قدر ذنوبه بمدة يقضيها فى النار كمقدار مائة سنة مثلا، ويعلن هذا الحكم بين الخلائق، فيستقر فى أذهانهم أن فلانا هذا المحكوم عليه، مدة عقابه مائة سنة، ويدخل النار على ذلك، ويكون ما كتب فى علم الله أنه لا يمكث فى النار إلا مقدار ست أو خمس سنين مثلا، فاذا انقضت تلك المدة المحددة فى علم الله، والتى حجبها عن جميع خلقه، بعث لمن شاء الله من الرسل أو غيرهم فأذن له فى الذهاب إلى ذلك المحكوم عليه بالمائة سنة فيبلغه عفو الله عما بقى من مدة الحكم، ويأذن له فى إخراجه من النار، فيخرجه منها، فيرتفع قدر الشفيع بين الخلائق حتى يتحدثوا بأن محمداً ﷺ مثلا قد أخرج بشفاعته فلانا المحكوم عليه بمائة سنة بعد ست سنين، وأن الله أخرجه من النار بتجاوزه تعالى عن بقية المدة إكراماً له ﷺ — هذا ما يستقر فى أذهان الناس .

وأما السبب الحقيقى لإخراج من يخرج من النار على الصورة السابقة فهو قضاء الله الذى سبق به علمه، ويكون إخراجه من النار بشفاعة الله عز وجل، كسائر من يخرجون من النار بشفاعة المخلوقين، فان شفاعتهم مظهر

لشفاعة الله عز وجل ، فتكون الشفاعة على التحقيق من الله وملكا له وحده . قال عز وجل (قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون)

ومن هذا يتبين أن طلبها من أى مخلوق ، كأن يقول الطالب : يا رسول الله الشفاعة . أو اشفع لى ، عمل غير جائز فى دين الاسلام ، وإنما تطلب من الله وحده . ولا يجوز تعيين شفيع لشخص معين أنه سيشفع فيه يوم القيامة ، فانه من باب التحكم على الله والرجم بالغيب .

الشفاعة الشركية

والشفاعة التى يعين فيها المخلوق من يشفع فيه ، كأن يقول : إن فلانا سيشفع لى ، فيتقرب إليه بما تسوله له نفسه نوع من الشرك ، وهو الذى أنكره الله على المشركين فى قوله عز وجل (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بمالا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون) فان آخر هذه الآية يدل على أن تعيين شفيع والتقرب إليه شرك

وإنما طلب الشفاعة من الله أن يقول من أراد ذلك : اللهم شفع فيّ رسولك أو من شئت من عبادك الصالحين بإذنك .

فتدبر ما قدمناه حق تدبره ، فانه تحقيق للجائز من الشفاعة والممتنع على أبين وجه

*
* *

وإذ ثبت وقوع الشفاعة يوم القيامة بالكتاب ومتواتر السنة ، فانما تقع بشرطين :

الأول : أن يأذن الله للشفيع ، والثانى : أن يرضى عن المشفوع فيه . قال تعالى (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا) وهذا حال الشفيع . وقال عز وجل (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) وقال (وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) أى عن المشفوع فيه

تعدد الشفاعات فى القيامة

والمستفاد من مجموع السنة ، وعليه أهل الحق من هذه الأمة أن الشفاعة تتعدد يوم القيامة ، ويختص نبينا ﷺ

منها بالشفاعة العظمى ، وبالشفاعة فى إخراج بقايا أمته من النار حتى لا يبقى من مؤمنيها أحد فيها

والشفاعة العظمى هى رجاء النبى ﷺ من ربه أن يصرف الناس من الموقف إلى الحساب بعد أن يشتد هوله حتى يتمنوا الانصراف منه ولو إلى النار ، بعد أن يؤذن له فيها ، وهذه الشفاعة إنما ينتفع بها على التحقيق المؤمنون خاصة ، لأنها تقصر المدة بينهم وبين دخول الجنة . أما الكافرون بعد دخولهم النار ومعاينتهم أهوالها فانهم يندمون على وقوع تلك الشفاعة لأنها قربت المسافة بينهم وبين النار .

وهى المقام المحمود . وبها يكون أول شافع ومشفع فى القيامة ، بعد أن يردها الأنبياء على الناس حتى تصل إليه ﷺ

الثانية : فى قوم استحقوا النار بذنوبهم فيشفع فيهم أن لا يدخلوها ، لأعمال صالحة أخرى عملوها

الثالثة : فى رفع درجات بعض أهل الجنة عن الدرجات التى استحقوها بأعمالهم

الرابعة : الشفاعة فى إخراج أهل الكبائر من النار

الخامسة : فى إخراج بقايا هذه الأمة منها

والأولى والأخيرة من خصائص نبينا ﷺ على التحقيق وماسواهما مشترك بينه وبين غيره . وقد روى عن جماعة من الصحابة فى الشفاعة أحاديث كثيرة ، منهم الصديق وأنس وأبو هريرة وابن عباس وابن عمر وحذيفة وعقبة بن عامر وأبوسعيد الخدرى وسلمان الفارسى وأبىّ ابن كعب وعبادة بن الصامت وجابر بن عبد الله وعبد الله ابن سلام وعثمان بن عفان وأبوأمامة وأبوالدرداء وابن مسعود والمقدام بن معدى كرب وعبد الله بن أبى الجدعاء وأبوموسى الأشعرى . فهؤلاء عشرون صحابيا من أعلام أصحاب رسول الله ﷺ رضى الله عنهم أجمعين ، روى عنهم وعن غيرهم خلائق ممن بعدهم لا تحصى أحاديث الشفاعة ومواضع وقوعها من الموقف والجنة .

فهى عقيدة من العقائد القاطعة التى يكفر عند أهل السنة منكرها ، لأن أحاديثها بلغت فى ثبوتها مبلغ القرآن

فننصح لك أيها المؤمن بدينك أن لا تصغى إلى تردد المترددين ولا إلى هذيانات المرتابين من الطوائف التى خالفت

أهل السنة ، فان من تردد فى وقوعها حرم منها . نسأل الله تعالى أن يدخلنا مع الشافعين المشفعين ، والمشفوع فيهم الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه فى جنات النعيم .

بيان الوسيلة الشرعية

مبحث فى الوسيلة وبيان المراد منها فى القرآن والسنة

إعلم أن الوسيلة فى لغة العرب كل شىء وصلك إلى المقصود ، سواء كان مما يتقرب به إلى الله أم لا . فالسفينة مثلا التى تعبر عليها البحر من شاطىء إلى آخر وسيلة . والسلم الذى يوصلك إلى السطح وسيلة كذلك . وهكذا . وتوصل إلى كذا، وتوسل إليه بكذا بمعنى واحد . قال لبيد :

ألا كلُّ ذى لب إلى الله واسل . أى واصل

وأما المراد بها شرعا ، فهو الإيمان والعمل الصالح الذى شرعه الله للتقرب به إليه .

وننقل هنا كلام المفسرين من السلف للفظة الوسيلة ، فقد روى ابن جرير بخمسة أسانيد إلى قتادة وأبى وائل شقيق ابن سلمة فى تفسير سورة المائدة أن المراد بالوسيلة

فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة) إنما هو الايمان والعمل الصالح ، وهو تفسير ابن عباس فى هذه الآية . قال ابن جرير فى تفسير الآية : (ياأيها الذين آمنوا) صدّقوا الله ورسوله فيما أمرهم به ونهاهم عنه وأخبرهم به من الوعد والوعيد (اتقوا الله) أى اجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية بفعل الطاعات واجتناب المعاصى (وابتغوا إليه الوسيلة) العبادة المشروعة سواء كانت واجبة أومندوبة فعلية كانت أوتركية ، كفعل الواجبات والمندوبات وترك المكروهات والمحرمات . اهـ

ولا بد لتكميل هذا التفسير من بيان ، وهو أن العمل لايكون صالحاً حتى يستكمل ثلاثة شروط :الأول : أن يكون مأموراً به من الله تعالى ، فلو عمل الانسان عملا غير مأمور به وقصد التقرب إلى الله تعالى ، فهو غير مقبول منه ، ودليل ذلك قوله ﷺ « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » وقد سبقت الاشارة إلى هذا الأصل وتقدم الكلام على أن العمل لا بد أن يكون مأموراً به ، ومخلصا فيه صاحبه ، مؤديا له على الوجه المشروع .

وهذا الأصل يبين أن ما يعمله أكثر الناس لغيره تعالى من العبادات التى اختص الله تعالى بها نفسه ولم يأذن أن تكون لغيره ، عمل غير مشروع . وقد نهى الله تعالى رسوله والمؤمنين أن ينادوا غيره فى القرآن كقوله تعالى (فلا تدعوا مع الله أحداً) (ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك) والدعاء يشمل العبادة بجميع أنواعها ، ومنها النداء على وجه الاستعانة والاستغاثة بالمنادى، ومخالف لقوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) فان هذا عهد قطعه العبد على نفسه ألا يعبد غير الله وألا يستعين إلا به ، فاذا نادى غيره أواستعان بغيره فقد نقض العهد . وقال تعالى (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الانسان كفوراً) وقال تعالى (فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) وقد مر مبحث الدعاء مفصلا .

طائفة من توسل الأنبياء ودعائهم عليهم الصلاة والسلام

وهنا نبين طائفة من توسل الأنبياء عليهم الصلاة

والسلام : فمنه ما حكى الله تعالى عن يونس وهو فى بطن الحوت فقال (وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) أى واذكر صاحب الحوت إذ ذهب مغاضبا قومه لعدم إيمانهم به ، فظن أن لن نضيق عليه وركب سفينة فخرجت القرعة عليه ليذبحوه ويأكلوه، أو لأنه مذنب هرب من سيده فيجب أن يلقى فى البحر لئلا تغرق بهم السفينة ، فرمى بنفسه إلى البحر ، فالتقمه الحوت ، فلما أصابه هذا الكرب (نادى فى الظلمات أن لا إله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) فتوسل بالتوحيد والتسبيح والاعتراف بالذنب .

وقال حكاية عن آدم لما أكل من الشجرة هو وزوجه (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وهذه هى الكلمات المرادة من قوله (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم) فتوسلا بالاقرار بالذنب وطلب المغفرة .

وقال حكاية عن ابراهيم عليه الصلاة والسلام حين ترك زوجه وولده اسماعيل (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع ـ إلى قوله : ربنا اغفر لى ولوالدىّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) توسل بالدعاء والايمان والعمل الصالح . إلى غير ذلك مما حكاه الله فى القرآن عن الأنبياء والرسل .

التوسل من السنة

وفى الحديث أنه ﷺ كان يتوسل فيقول « ياحىّ ياقيوم برحمتك أستغيث » وفى الحديث « دعاء أخى يونس ما دعا به مكروب إلا فرج الله كربه » وقد تقدم

وفى الحديث « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »

وفى الحديث « اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينى ما علمت الحياة خيرا لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى ، وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وكلمة الحق فى الغضب والرضا ، والقصد فى الفقر والغنى ، ولذة النظر

إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك وأعوذ بك من ضراء مضرة وفتنة مضلة . اللهم زينا بزينة الايمان ، واجعلنا هداة مهتدين » رواه النسائى عن عمار بن ياسر من دعائه ﷺ فى السجود .

والكتاب والسنة مملوآن بتوسل الأنبياء بالله تعالى وصفاته والايمان والعمل الصالح ، لم يتعدوا ذلك . وقد قصه الله علينا لنقتدى بهم .

ومن أنفع الوسائل وأحب الطاعة إلى الله صلاة النفل والصدقة والصوم والإكثار من الصلاة والسلام على النبى ﷺ ، وقراءة القرآن والذكر والتسبيح ، وغير ذلك من العبادات التى شرعها الله تعالى . وماأحسن قول يعقوب عليه الصلاة والسلام (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون)

وما دامت الوسيلة قد انحصرت فى العبادة المشروعة فلا بد لمن يجيز التوسل بالمخلوق أن يأتى بدليل من الكتاب والسنة يدل على جوازه ، لأن العبادات لا تشرع بالعقل والاستحسان . وقد أنصف الألوسى فى تفسيره سورة المائدة

فى الكلام على الوسيلة . وحكى فيها الحق ، وأنه لا يجوز التوسل بمخلوق من المخلوقين،وصرح بأن حديث « توسلوا بجاهى فان جاهى عند الله عظيم » وحديث « إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور » باطلان ، وهما كما قال،فانهما من اختراع العامة ، ولهذا خلت منهما جميع كتب السنة . إلا أنه توقف فى جواز الوسيلة به ﷺ ، تابعاً فى ذلك للعز بن عبد السلام من أئمة الشافعية نظراً لحديث الترمذى عن عثمان بن حنيف ، وقد تقدم الكلام عليه مستوفى ، فلا معنى لهذا التوقف ، ولا سيما بعد تصريح إمامه أبى حنيفة رحمه الله بعدم جواز ذلك كما مرّ .

وإلى هنا ننتقل من هذا الباب إلى الباب الثالث فى أحكام القبور .